

كلنا على خطأ

المتقف والتاريخ بين واجب المواطنة ولسان حال الكونبة

□□ يحاول المفكر اليوناني في هذا المقال إبراز علاقة المتقف بالتاريخ في مقاربة جديدة تتعدّد ذلك الرأي القائل بالدور الطليعي للمتقف. فالمتقف هو قبل كل شيء مواطن ولا يعدو أن يكون رأيه واحداً من جملة آراء. كاستور ياديس يتقدّم فكرة للمتقف المعزول والمنفصل عن المجتمع سواء ذلك المترفع عن الشعب أو ذلك المناضل الحزبي الذي يؤهريه بأنه قبض على التاريخ وفهركه أنه هو ذلك الذي يحلم بالقوة ولا يتنبه تقده للواقع عن السقوط في تأييد وقع أكثر يونساً فينباحول إلى "واعظ" وشبه فقهه في خدمة الأمبر أو لتقل مع علي الوريدي من وعاظ السلاطين. ينعرض كاستور ياديس لنصرفات "المتقفين" ومواقفهم وذلك من خلال عديد الأمثلة المستقاة من التاريخ قريه ويعبه. في رأيه لا يمكن للمتقف أن يكون داعية للحرية إذا كان موقفه من ماضيه تبريرياً كأن نعتبر "كل ما هو واقعي عقلائي" وأن ما وقع له مبرراته وتلك مشبهة التاريخ وقوانينه وقدر الكائن. فالوقت من الماضي والحاضر لا ينفصل عن رؤيتنا للمستقبل. (د. سهر سيباس) □□

□ كورنيليوس كاستور ياديس *

تجدني مرغماً على التوقف عند المصطلحات الأساسية التي يصاغ وفقها السؤال وهذا تقليد فلسفي لا مفر منه.

ما التاريخ؟ ليس المقصود بالتاريخ فقط ذلك التاريخ المنجز وإنما ذلك الذي هو في طور الإنجاز والتاريخ الذي سوف يتم إنجازه. التاريخ هو أساساً إبداع - إبداع وتدمير. يعني بالإبداع شيئاً آخر غير غياب التحديد الموضوعي وقابلية كل واحد منا على إدراك الأحداث وفهمها وسبر التاريخ.

إن التاريخ هو المجال الذي يبدع الإنسان داخله إشكالات وجودية. يعتبر التاريخ والمجتمع أولى هذه الإشكالات. لا يعني الإبداع أساساً وبكيفية عامة إبداعاً جيداً أو إبداعاً قيمياً إيجابية ذلك أن أوشويتز والغولاك (محتشدات هتلر وستالين) هما أيضاً إبداعان شأنهما في ذلك شأن مبادئ الرياضيات، لكن من بين إبداعات تاريخنا وأعني به حصراً التاريخ اليوناني، ثمة واحد نقيمه بشكل إيجابي ونستعيده لصالح البشرية ويتجسد في المسألة والنقد والأخذ بعين الاعتبار والتمتع والتعقل الذي هو في الآن نفسه الافتراض المسبق للفلسفة والسياسة. يتعلق الأمر هنا بموقف إنساني أساسي ولا يخص فئة أو مجتمعاً دون آخر. فهو يفترض أنه ليس ثمة لحظة منفصلة عن إنسانية مسؤولة وفي المقام الأخير عما يحدث في التاريخ وأنه لا وجود لثمة صحيحة للتاريخ أو لفاعل (غير إنساني) للتاريخ. بمعنى آخر، فإن التاريخ إنجاز بشري وليس نتيجة لإرادة متعالية أو قدر مسطر أو قوانين معينة مهما كانت هذه القوانين. بالذات لأنهم لم يكونوا يعتقدون في تحديات غير إنسانية ومن صنع قوى خفية من هذا القبيل، فإن اليونانيين تمكنوا من إبداع الديمقراطية والفلسفة.

إننا نستعيد ونعيد تأكيد رغبتنا في إطالة أمد هذا الإبداع وأن تتواجد وتتخصن داخل هذا التراث، تراث النقد الجري وهو ما يستوجب أيضاً المسؤولية؛ لا يسعنا إسناد الخطأ إلى الآلهة لكل ما يحدث لنا. فنحن المسؤولون عن تاريخنا وأعمالنا.. الخ. لا يمكننا أن نحتمي بأي معيار خارج عن التاريخ بغية إسباغ المعيارية على سلوكنا الذي ينبغي رغم ذلك أن يكون معيارياً. بخلاصة نحن نتموضع بالنسبة لما هو ذاتي ويمكن أن ما يلزم أن يكون أيضاً حياً ما حدث باعتبارنا فاعلين نقديين وليس مشاهدين على العصر أو مبررين. ينبغي التأكيد أنه لا يسعنا أن نغير ما حدث وما حصل، لكن في مقدورنا أن نغير نظرتنا إليه وموقفنا منه وهي الرؤية التي تعتبر عنصراً أساسياً. وإن كانت درجة وعينا بها هي الأدنى في الغالب. للوضع الراهنة (فالنظرة التي تمجد التاريخ وتريد استرجاعه أو تنوهم استعداته هي بالأساس غير مسؤولة وتعيق تقدم الفكر وهي بالأساس رجعية).

ما المتقف؟ فيما يتعلق بي شخصياً لم أرغب ولم أقبل بهذا المصطلح وهذه الصفة بحكم أسباب هي في أن واحد جمالية: الهالة البائسة والحالة الدفاعية الذي تحاط به وتفترضه وفي نفس الوقت منطوية. إذا أقرنا بتعريف للمتقف، فعندها يصبح السؤال من هو غير المتقف؟ بدون أن يجربنا ذلك إلى طرح أسئلة بيو سيكولوجية أساسية، وإذا نحن فهمنا من مصطلح المتقف ذلك الشخص الذي يعمل بشكل شبه مطلق بدماعه وتقريباً دون يدن، فإننا نقصي أناساً نرغب بجلاء في حضورهم

كالنحاتين وأصناف أخرى من الفنانين وكل من يشتغل بيديه وندرج في المقابل أناساً لم تكن نقصدتهم كرجال الإعلام والمصرفيين ..

لا أتفهم كيف أن خبيراً بارعاً في دراسة الحضارة المصرية أو عالماً رياضياً حتى، وإن لم يبديا رغبة في معرفة ما يوجد خارج دائرة اختصاصهما، لن يثيرا اهتمامنا. انطلاقاً من هذه الملاحظة، سوف يكون في مقدورنا أن نقترح الأخذ بعين الاعتبار وفي علاقة بموضوعنا الراهن تعريفاً نعتبره الأقرب للصواب: المتقفون هم هؤلاء الذين مهمما كانت مهنتهم يحاولون تجاوز دائرة اختصاصهم ويهتمون بشكل فاعل بما يحدث في المجتمع. لكن ذلك يفترض منا تحديد معنى المواطن الديمقراطي بصرف النظر عن انشغاله (وسوف نلاحظ أن هذا التحديد يناقض بدقة تحديد العدالة حسب أفلاطون أي أن تهتم بمشاغلك وأمورك الخاصة وأن لا تعير اهتماماً لما عداها).

لن أسع في هذا المجال إلى الإجابة عن هذا السؤال. غير أن ملاحظاتي سوف تخص هؤلاء الذين بواسطة توظيفهم الكلام والخطاب أو الصياغة الواضحة (كلاماً وكتابة) لأفكار عامة تمكنوا في السابق أو يمكنهم في المستقبل التأثير على تطور مجتمعهم أو مسار التاريخ. نسجل في هذا المقام أن لأحتهم ضخمة والأسئلة التي حبلت بها أقوالهم وأفعالهم غير محدودة. سوف أقصر اهتمامي في مناقشة مختصرة لثلاث نقاط.

تتعلق النقطة الأولى، بنوعين مختلفين من العلاقة بين المفكر والجماعة السياسية والذي يجسدتهما بصفة جلية وبارزة ذلك التعارض الجذري بين سقراط الفيلسوف داخل المدينة وأفلاطون الفيلسوف الذي يرغب في أن يكون فوق المدينة. تتعلق النقطة الثانية، بذلك النزوع (أو لنقل الغرور) الذي أوهم للفلاسفة، انطلاقاً من مرحلة تاريخية معينة، أنهم قادرين على عقلنة الواقع، أي شرعنته (وضع قوانين للتاريخ وتفسيره وتبريره). أبرز العلامات لهذا الإدعاء تلك الحالات المؤسسة التي حفت ببعض "المتقفين" وبشكل خاص رفاق درب السنالينية، لكن أيضاً وبشكل عملي متباين وإن معادل فلسفياً مع هيدغر والنازية. سوف أختتم بالنقطة الثالثة، وتعلق بالمشكلة التي تثيرها العلاقة التي تربط الناقد ورؤية الفيلسوف المواطن بالحقبة والتي مفادها أنه ضمن مشروع لاستقلال الذاتي والديمقراطية، نعتبر الغالبية العظمى من الرجال والنساء الذين يعيشون داخل المجتمع منيع الإبداع والخزان الرئيسي للمخيل المؤسسة (بكسر السين) والذين ينبغي أن يكونوا النوات الفاعلة للسياسة الواضحة والفعالية.

كان الفيلسوف في اليونان القديم وعلى امتداد مرحلة زمنية أولية وطويلة مواطناً. لهذا السبب، كان يستدعي أحياناً لكي يصوغ قوانين لمدينته أو لأخرى. كان سولون في هذا السياق المثال الأكثر شهرة. وعندما أسس الأثينيون عام 443 قبل الميلاد مستعمرة ثوريسو في إيطاليا، فإن اختيارهم وقع على بروتاغوراس لكي يصوغ قوانينها.

كان سقراط آخر هذه السلالة وأكبرها على أية حال. فهو فيلسوف لكنه كان مواطناً؛ فهو يناقش مواطنيه داخل الأغورا Agora وهو رب أسرة وأب لبناء علاوة على مشاركته في ثلاث حملات عسكرية.

لقد اضطلع بمهمة رئيس المحكمة العليا وكان رئيساً للجمهورية لمدة يوم واحد في اللحظة الأكثر مأساوية في تاريخ الديمقراطية الأثينية وهو اليوم الذي شهد محاكمة القادة المنتصرين في معركة أركينوس عندما تراس تجمع الشعب واستطاع أن يكبح غضب الجمع الهائج رافضاً محاكمة القادة العسكريين بطريقة غير شرعية.

سوف يرفض بعد سنوات من ذلك التاريخ أن يمثل لأوامر الطغاة الثلاثين بأن يلقي القبض بطريقة غير شرعية على أحد المواطنين، وسوف تجسد محاكمته وإدانته مأساة بالمعنى الخالص للكلمة حيث لا يجدي البحث عن الأبرياء والمتهمين. من الأكيد أن الديمقراطية سنة 399 لم تكن ديمقراطية القرنين الرابع والخامس وأن المدينة كانت سوف تواصل قبولها بسقراط كما كانت تفعل على امتداد عقود من الزمن. بيد أنه يلزمنا أن نفهم أن

□□ القدر في رأي الغير فعل شرعي ومقبول به على نطاق واسع، إذ يُعتبر المنتفس الحقيقي للحياة العامة.

لكن سقراط ليريقف عند تبيين أن هذا الرأي أو غيره خاطئ (ولا يقترح أن يحل رأي محل آخر)، لكنه بين أن

كل الآراء مغلوطة، وأضاف إلى ذلك، أن من يدافعون عنها يدعون ما لا يعرفون □□



كاستور ياديس

بأن يقبل الحكم الذي أصدرته محكمة مشككة من مواطنيه إذ أن الخطاب الذي القاه في الكريطون Creton والذي أُعتبر غالباً هجوماً ذا طابع أخلاقي والحال أنه يمثل بلورة رائعة وتجسيدا للفكرة اليونانية الأساسية المتمثلة في تكوين الفرد من طرف مدينته. فالمدينة هي التي تربي الإنسان كما يكتب سيمونيد وكان سقراط يعرف بأن أثينا هي التي أنجبتته وأنه لم يكن في مقدوره أن ينبعث في مكان آخر ..

من الصعب أن نفكر في مريد خان روح معلمه بشكل مضاعف على مستوى الممارسة كما فعل أفلاطون. لقد انسحب هذا الأخير من المدينة وأقام خارج أبوابها مدرسة لصفوة منتقاة من المريدين. لا علم لنا بحملة عسكرية شارك فيها بنفسه أو شارك فيها أفراد أسرته. فهو لا يمنح المدينة التي تعهدته بالعباية والتكوين أي شيء مما ينبغي لأي مواطن أن يمنحه: لا خدمة عسكرية أو أبناء أو قبول بمسؤوليات عامة بل على عكس ذلك يتحامل كثيراً على أثينا. لقد نجح بفضل موهبته الكبيرة كخطيب وسفطائي وديماغوجي في أن يفرض على امتداد القرون اللاحقة هذه الصورة: "إن سياسي أثينا أمثال ثيميستوكل وبركليسي ليسوا سوى ديماغوجيين وإن المفكرين سفسطائيين" بالفهم الذي حدده و"إن الشعراء مرتشو المدينة وإن الشعب ليس سوى قليعبا تقوده الأسماء والأوهام" (نجد مثل هذا التعبير في مجتمعاتنا العربية: "الشعب تلزمه الدكتاتورية لأنه جاهل ومتخلف) ولقد زَيّف بقوة التاريخ وهو أول مبدع للوسائل الستالينية في هذا المجال.